

"قراءة في المشاريع البلاغية المعاصرة، وجدلية القديم  
والجديد في البلاغة"

**"An Analysis of Contemporary Rhetorical Projects  
and the Dialectic between the old and the Modern in  
Rhetoric."**

د/هاني علي سعيد محمد  
أستاذ مساعد البلاغة والنقد بقسم اللغة العربية،  
كلية الآداب، جامعة الفيوم.  
[has00@fayoum.edu.eg](mailto:has00@fayoum.edu.eg)

## ملخص البحث

ما لا يمكن إنكاره أن هناك توجهين كبيرين داخلَ الدرسِ البلاغيِّ المعاصرِ، الأولُ ينافحُ عن البلاغةِ التراثيةِ وابتنائها، ويدخلُ هذا التوجهُ مَنْ يبلغونَ الغايةَ في التعصبِ لها عصبيةً تُنزّلُها منزلةَ النصوصِ المقدسةِ، أما الآخرُ فهمُ أربابُ البلاغةِ الجديدةِ، وفيهم من يتبنى فكرةَ نبذِ القديمِ، كما تبنت طائفةٌ منهم، أيضاً، ردّاتِ فعلٍ مُجحفّةٍ تُجاه كلِّ مَنْ رامَ تواسلاً فيما بين البلاغتين: القديمةِ والجديدةِ، وعلى الأعرافِ، ما بين هؤلاءِ وهؤلاءِ، جهودٌ وقفتْ محاولةً التوفيقِ فيما بين البلاغتين، لكنّ هذه الجهودُ توصفُ بأنها ضربٌ من ضروبِ لَيِّ النَّصوصِ، وفرضِ تأويلاتِ مشوشةٍ "لِعَصْرَنَة" كلِّ ما هو تراثيٌّ، مما صنع جدلياتِ ناقشناها من خلال مقارنة نظرية لمجموعة متباينةٍ من المشاريعِ البلاغيةِ المعاصرة .

الكلمات المفتاحية: (البلاغة، عبد المطلب، أبو موسى، العمري، مصلوح)

**Abstract**

Undoubtedly, there are two major trends in the contemporary rhetorical lesson. The first trend defends and adopts the old rhetoric, and there are, within this trend, some extreme fanatics who deal with old rhetoric as if they were dealing with holy texts. The other trend includes those associated with the new rhetoric; some of them adopt the idea of discarding the old. Furthermore, a group of them has adopted prejudiced reactions against anyone who sought connecting both the old rhetoric and the new one. On *Al-A'raf*, there are in-between efforts that have tried to reconcile both of them, but these efforts are described as ways of twisting texts and imposing confusing interpretations to modernize whatever is old. Hence, this has led to the dialectics that have been discussed in this paper through a theoretical approach of a set of various contemporary rhetorical projects.

**Keywords:** ( Rhetoric, Abd al-Motaleb, Abou Mousa, AlAmry, Maslough)

## مُقَدِّمَةٌ

الحمدُ لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحاتُ وبجوده ومثته تحصلُ البركاتُ، وأصلي وأسلم على النبي الخاتم محمد، صلى الله عليه وسلم، أتمَّ وأفضلُ الصلواتِ وبعد، فإنَّ المثلَّ العربي يقول: "ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيًا" وقصةُ المثل أن رجلاً حَمَلَ على رجلٍ ليقْتله، وكان المحمول عليه في يده رمحٌ لو أنه فطن لدافع عن نفسه به، غير أنه أخذه الدَّهْشُ والفرغُ من هول الموقف فنسي، فذَكَرَهُ الحامل قائلًا: ألقِ الرمح، فقال: "ذَكَرْتَنِي الطَّعْنَ وَكُنْتُ نَاسِيًا" ... هذا المثلُّ العربي القديم يصلح جواباً يجري على لسان البلاغة العربية، لو عمد باحثو العربية ممن افتتن بالجديد وحده إلى استنطاقها لنطقت به، وأبانت عما تحمله في جعبتها من منهجية تلامس كثيراً من المنجزِ البلاغي الجديد، وما توصل إليه الدرس الألسني الحديث.

غير أن كثيراً من البلاغيين والباحثين المحدثين تنكَّر لهذه البلاغة، وربما بـ(القدم) ليس من باب التحديد الزمني ووصف تراثيتها، وإنما من باب أن القدم قد أتى عليها فأبلاها؛ لتصير بلاغة قديمة تناسب النص القديم في سذاجته - كما يزعمون - ولا تواكب الطفرة العاتية التي باتت تحكم المنتج الأدبي الحديث والمعاصر، الذي واكبته بلاغةٌ جديدةٌ هي الأنسب والأقدر على سبر أغواره، وتتصيد شتاته، وتبئيره، ولملمة تشظيه... إلى آخر هذه الادعاءات!

مثل هذه الاجترارات لا تهدم البلاغة التراثية فقط، بل تعمل على عزلها داخل إطارٍ زمني ونصي لا تخرج عنه، وتلغي من ذاكرة العلم ما أسداه علماء البلاغة العربية الأفاضل للعلم أولاً وللإنسانية ثانياً من جهود، والطامة الأعم أنها تُنسى البلاغة العربية أنها كان لها رمحٌ يوماً وكان لهذا الرمح مساجلات وطعان!

إن المناهج الحديثة التي تتعامل مع النص الأدبي بوصفه منجزاً إنسانياً تُصنَّف اليوم في درجات متباينة ما بين القدم والحداثة، وهذا لا إشكال فيه، إذ إن تباين المنتج يقود إلى تباين المنهج المشتغل على هذا المنتج، ولو تأملنا كيف هوى صرح البنائية -مثلاً- بعد أن كانت ملء السمع والأبصار من بين المناهج النقدية الحديثة -لأدركنا أن زوال فكرة الحداثة عن الحديث ووصفه بالقديم سنة كونية قبل أن تكون سنة علمية، وإنما المشكلة الحقيقية تكمن في التعاطي مع وصف البلاغة بـ (القديم) في ضوء فكرة (النبد) لا في ضوء فكرة التواصل مع المنجز الجديد.

والذين تبنوا فكرة نبد القديم هذه وجَّهوا ردَّات فعل مُجْحَفة تُجاه كل من رام ويروم تواملاً فيما بين البلاغتين: القديمة والجديدة؛ لتوصِّف محاولات التوفيق العلمي من قِبَل هؤلاء بأنها ضربٌ من ضروب لِيّ النصوص، وفرض تأويلات مشوشة "لعصرنة" كل ما هو تراثي، ثم

يُوصَفُ الموقِّفون بأنهم مأخوذون بـ"نوستالجيا" التثبث بالماضي، وأن فكرهم لا يمكن أن ينفصل مطلقاً عن جذوره القديمة.

غير أن البلاء الأعظم الذي يحيق فعلاً بالبلاغة التراثية هو التعصب لها أحياناً من بعض المشتغلين بها عصبية تنزلها منزلة النصوص المقدسة التي لا يجوز عليها التطوير أو التغيير، وهذا ضرره على العلم أخطر من ضرر مَنْ يُنكر القديم التراثي بالكليّة؛ لكونه لا يتماشى مع جديده، فهذه الدوجمائية لا يعرفها العلم في أصل وجوده، فما بالك والأمر متعلق بعلم إنسانيّ يتناول الأدب ونصوصه، بوصفه نشاطاً إنسانياً ليس فيه قدر من الثبات المطلق!!، وإنما هي رؤى تتغير، وصور تتشكل، وبلاغات تتواصل لتنتج أشكالاً جديدة تطوّر من إجراءات وصولنا إلى الفهم المنشود.

في ضوء ما تقدم كله انبثقت فكرة هذا البحث من رؤيةٍ لصاحبه يؤمن فيها بوجود منطقة مشتركة فيما بين المنجز البلاغي التراثي والمنجز البلاغي الجديد أو ما بات يُعرف بالبلاغة الجديدة، وأن العلاقة بينهما إنما هي علاقة تواصل لا انفصام، وهو ما حاولنا أن نجرّد له حُطّة حَرَصَ هذا البحث على اقتفائها في مطالبه.

ولما كان كل بحثٍ إنما قيمته تكمن في الأسئلة التي يطرحها، فإن هذا البحث يثير العديد من الأسئلة بداية من عنوانه، الذي يتركب من (جدلية) ومن شأن الجدليات أن تتضمن تساؤلاتٍ تُثار وأجوبةً تُردُّ في محاولةٍ لإنجاز محطةٍ يتوقف عندها الجدل، وبعض هذه الأسئلة مكرور تقاذفته بحوث سابقة، من مثل: ما البلاغة؟، وما الدور المنوط تجاه البلاغة القديمة؟ هل نُقبرها أم نُحييها؟ وبعضها يُحرّضُ عليه هذا البحث بقوة، من مثل: هل بالإمكان تضافر جهود البلاغيين من أجل تقديم مشروع بلاغي شمولي، ينقذ هذا الإرث البلاغي الضخم من التلاشي، ويواكب في الوقت نفسه حاجاتنا الماسة لنظرية بلاغية جديدة تناسب طروحات العصر وخطاباته الكبرى؟ ومن هنا فقد ناقشنا تساؤلات هذه الجدلية من خلال مطالب تناولنا فيها: سؤال الماهية بالنسبة للبلاغة الجديدة في مطلب أول، كما تناولنا مسببات الوصف بالقدّم، المقصود به النبذ، بالنسبة للبلاغة القديمة في المطلب الثاني، في حين جاء المطلب الثالث توصيفاً مختصراً لمشروعات بلاغية معاصرة، منها: مشروع الدكتور محمد محمد أبي موسى، ومشروع الدكتور سعد مصلوح، ومشروع الدكتور محمد عبد المطلب، وأخيراً مشروع الدكتور محمد العمري، ولم يكن قصد البحث من وراء ذكر هذه المشاريع الأربعة نية الحصر، وإنما هو مخطط حاولنا فيه عرض أبرز الجهود البلاغية التي تحمل رؤى حقيقية للبلاغة العربية، في دعوة إلى خلق دافع حقيقي - أيضاً - لتأخيها وتأخذها، مما يفيد الدرس البلاغي إفادة مأمولة في حال تحقق ذلك، لعل أهمها التوفيق بين التراثي البلاغي والجديد الغربي فيما يقبل التوفيق والتوصل إلى أن تكون

البلاغة كُليةً تصلح للتخييل من جهة وتصلح للتداول والحجاج من جهة أخرى، دونما وجود حد فاصل فيما بين التخيلية الشعرية، والخطابية الإقناعية.

وإني لأرجو، ختاماً، أن تكون الرؤى العلمية التي قدمتها في هذا البحث زادا ينفع المؤلف أولاً، ثم ينفع الباحثين القارئين له ثانياً، وأن يغفروا ما وقع فيه صاحبه من زلل أو خطأ، فإنما القصد والتعويل على النفع، ومن وراء النية الصالحة تُغفر الزلات، والله الحمد أولاً وآخراً.

"... والجدل عصبُ البلاغة."

( أحمد حسن الزيات: دفاع عن البلاغة، ص ٢٠ )<sup>(١)</sup>

### توطئة:

ينبغي في البداية أن أقرر أنني لستُ بصدد عقد مقارنة في هذا البحث فيما بين البلاغة العربية التراثية والبلاغة الغربية الجديدة؛ لأن هذا أولاً ليس هدفاً لهذا البحث، ثم لأن المقارنة ستكون مُجحفَةً، والإجحاف هنا غير مردود لتفوق البلاغة الغربية على البلاغة العربية الآن، وإنما مردّه إلى أمرٍ جوهريٍّ يعودُ إلى اختلاف مقوماتِ البلاغتين، واختلاف النشأة، واختلاف البيئة المنتجة لهما، واختلاف النصوص المغذية لفسفة كليهما.

وتأسيساً على هذا الإيضاح يكون هدف هذه الدراسة قائماً على تحديد أهم صفات البلاغة الجديدة، ثم قراءة مبسطة لواقع بلاغتنا العربية في ضوءها؛ في محاولة لاستنهاض نموذج بلاغيٍّ عربيٍّ لا يهدم القديم ليقوم الوافد الغربي على أنقاضه، وإنما نموذج يحترم خصوصية التراث البلاغي، وفي الوقت نفسه يفيد من المنجز الغربي من خلال المناطق البحثية المشتركة لبيئتي بلاغة فاعلة في الواقع من حولنا، ليست بالبلاغة الملقنة داخل أروقة الدرس، ولا بالبلاغة المنفلتة عن جذورها أو ما يمكن أن نطلق عليه البلاغة العبيئية، التي لا تُردُّ إلى منزع أو قاعدة، ولا يقف معها دليل أو يساندها تبرير.

إن البلاغة العربية ليست بلاغة واحدة، لو شئنا الإنصاف، وإنما هي بلاغات متعددة، والذين ينهالون على البلاغة العربية التراثية سخرية واستهزاء غالباً لا يعرفون من البلاغة سوى أنها فنون ثلاثة: المعاني والبيان والبديع، أو بلاغة الكتب المدرسية، في حين أن البلاغة قديماً وحديثاً إنما هي مجمل النصوص التي رعتها هذه الأمةُ تأليفاً وقراءةً، وتفسيراً وشرحاً واختياراً، ومن دون هذه النصوص لا يمكننا العثور على البلاغة؛ لذلك فمن الضروري أيضاً أن أشير إلى

(١) يُعد أحمد حسن الزيات من أصحاب الرؤى التي حاولت أن تجدد البلاغة العربية، وذلك بعد أن مرت البلاغة بمرحلة التيسير عقب دخولها ضمن حيز المناهج التعليمية المدرسية، وقد جعل الزيات البلاغة إقناعاً وعدّ: "علم البيان الجزء النظري من فن الإقناع، والبلاغة هي الجزء العملي منه". يراجع كتابه: دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧، ص ٢٩.

أن النموذج البلاغي المنشود، الذي يدخل في مَسَعَى هذا الكتاب هو نموذج بلاغة الخطاب، وهي تلك البلاغة التي تصلح لكل خطاب وليس الخطاب الشعري الجمالي فقط، أو النثر الفني فقط، فالبلاغة الآن باتت وعيا مضاهيا للوعي بالوجود الإنساني .

### المطلب الأول: البلاغة الجديدة، وسؤال الماهية.

هناك جدلية أُعِدُّها خطيرةً تتعلق بمسألة مهمة، وهي على أهميتها ذات طابع بَدَهِيٍّ وهنا مكنن المفارقة، هذه المُسَاءَلَةُ تتعلق بمدى حاجتنا إلى المناهج، أو بصورة مباشرة لماذا نطلب المنهج؟ والجواب العادي يقول: إنما نطلب المنهج لحاجتنا إليه، وهو كلام منضبط لكنه يحمل بداخله فكرة مناقضة، وهي أنه بالإمكان أن تُسَقِطَ المنهج في حال غياب الحاجة إليه! أو ربما - كما يرى جورج جادامر Gadamer - حينما يكون المنهج له الدور الأكبر في التباعد فيما بين الذات والموضوع، ف"هذه الهوة ترجع إلى خدعة المنهج الذي يضللنا عن الموضوع بدلا من أن يعيننا على رؤيته. ومن هنا يوجه جادامر النقد إلى ديكرت، الذي يعود إليه المنهج بنظريته في المعرفة والعلم"<sup>(١)</sup> وهو الأمر الذي جعل جادامر ينتقل إلى المستوى الوجودي في الفهم، لا المستوى المعرفي الذي يخضع في تحصيله لمناهج قد تكون مضللة<sup>(٢)</sup>. وهذا يجزنا إلى مناقشة فكرة التجديد المنهجي، فطالما أن المناهج، ومنها البلاغة، تمثل حاجة للجماعات الإنسانية على امتداد وجودها زمانيا ومكانيا؛ كي يمكنها التناغم مع الواقع من حولها، بما أن ذلك كذلك فإنه من الخطل النظر إلى جزء من هذا المنهج بأنه قديم ثم النظر إلى جزء آخر منه بأنه جديد، اللهم إلا إذا كان هذا التوصيف من باب التحديد الزمني، أما من الناحية العلمية فالتراكم المعرفي الإنساني ينفي فكرة عزل جزء من العلم وحده في إطار زمني ومكاني ما بتهمة أنه لا يصلح، واستحداث آخر مبتوت الصلة عن هذا القديم بحجة أنه أكثر مواءمة، وقد نجحت البلاغة الغربية في التعامل مع بلاغتها من هذه الوجهة على أنها امتداد لا انقطاع، وذلك حين أجروا تعديلات على بلاغة أرسطو، فتحولوا بها إلى الوصفية، في حين أن بلاغتنا العربية تعاطى معها أهلها بمنطق العزل لا بمنطق التواصل؛ إذ بات عليهم أولا أن يقتلوا السكاكي (ت ٦٢٦هـ) وبلاغته؛ كي يبتنوا بلاغة تشرئب لها أعناقهم بأنها: بلاغة جديدة.

لكن هذا الأمر لا يعني أن البلاغة الكلاسيكية في الغرب لم يعترضها مناكفون وشائنون، بل قد وجد من نادى باجتنائها ومحاربتها، يقول رولان بارت عن البلاغة القديمة:

(١) د. مجدي توفيق: مدخل إلى علم القراءة الأدبية، سلسلة كتابات نقدية (٣٤)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤، ص ٦٥.

(٢) هانز جورج جادامر: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: د. حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية دكتور: جورج كتوره، دار أويا للطباعة والنشر، طرابلس، ط ١، ٢٠٠٧، ص ٢٦٥.

"يتمثل انتصار البلاغة في هيمنتها على التعليم، أما احتضارها فيتجلى في اختزانها ضمن هذا القطاع، إنها تسقط شيئاً فشيئاً في زوال نفوذ ثقافي"<sup>(١)</sup> ولنا أن نتأمل هذه المقولة، التي لا نراها تُحدِّد البلاغة القديمة بقدر ما تثور على أنظمة التعليم التي حوّلت البلاغة، وهي النابضة بالحياة، إلى طقس كهنوتي يؤدّي بطريقة واحدة لا تتغير .

إذن دَعَتْ الحاجة المُلحة في الغرب إلى تجديد البلاغة القديمة، لا اجتناب القديمة واستحداث بديل جديد<sup>(٢)</sup>، وقد كان للروافد الفلسفية، وانتشار الحريات، والديمقراطيات في العالم الغربي أثر بالغ في هذا التجديد، وكان للتحوّلات التاريخية والمعرفية والثقافية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر دور كبير أيضاً في ظهور البلاغة الجديدة.

وعلى الأرجح أن الظهور الأول لمصطلح (البلاغة الجديدة) قد ارتبط بكتاب بيرلمان وتيتيكاه في الحجاج، وعنوانه: (مصنف في الحجاج - البلاغة الجديدة) سنة ١٩٥٨م، وهذه الحماسة في عد الحجاج بلاغة جديدة لم تكن صائبة بالنظر إلى البلاغة الأرسطية التي اعتمدت في شقها الخطابي على الإقناع والبراهين والجدل، وهو ما دفع بيرلمان بعد ذلك في أن يوحد بين مسعى الحجاج ومسعى البلاغة في كتابه: (مختصر البلاغة)، وقد عبّر فيه عن توجهاته الجديدة في الحجاج، وهي توجهات تُردُّ الحجاج إلى البلاغة الكلاسيكية في تشارك وتقاطع لا انفصال .

وتتبعي الإشارة هنا إلى أن هذه البلاغة الجديدة لم تكن بلاغة واحدة بل هي بلاغات متعددة، فإذا كان الحجاج قد اقترن بظهور المصطلح إلا أن الأسلوبية كانت سابقة عليه، بوصفها درسا لسانيا يعنى بوصف الأسلوب وتصنيف ظواهره، ورصد الخصائص المائزة للنصوص، وقد اجتاحت الأسلوبية الدرس الغربي، كما اجتاحت الدرس البلاغي العربي، قبل أن يخفت هذا الانبهار بها نتيجة اكتشاف التداوليات التي ركزت اهتمامها على الإنشاء والخبر وأفعال الكلام والاستلزام الحوارية.

ولا تكتفي البلاغة الجديدة بأن تضم في جعبتها الأسلوبية، والحجاج، والتداولية، بل ضمت كذلك السيميائية، التي عنت بتطبيق المقاييس اللسانية والبلاغية على الجوانب غير اللفظية والإشارية من الخطاب، بوصفها نسفاً دالاً، كما يدخل في البلاغة الجديدة نظرية التلقي وجمالياته، وبحوث الصورة، وتصنيف الخطاب، والأجناس الأدبية .

(١) رولان بارت: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تر: عمر أوكان، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ١٩٩٤م، ص ٣٨.

(٢) وهذا الأمر على عكس ما حدث من البلاغيين المحدثين، فقد تلقف - على سبيل المثال - الدكتور عبد السلام المسدي الدرس الأسلوبية الغربي وطفق يطرحه بديلاً عن البلاغة العربية التراثية، يقول: " فالأسلوبية امتداد للبلاغة ونفي لها في الوقت نفسه، هي لها بمثابة جبل الوصل والقطيعة" كتابه : الأسلوبية والأسلوب، دار سعاد الصباح - الكويت، ط٤، ١٩٩٣. ص ٥٢. وضرب المثال هنا بالأسلوبية له مغزى غريب؛ حيث طُرحت بديلاً رغم تواضع فصولها مع البلاغة التراثية بشكل كبير، مما يعني أن المناهج الأخرى غير الأسلوبية من حقها أن تعد البلاغة القديمة سرايا لا وجود له ، كما هو الشأن في الحجاج والتداوليات والسيميائيات من بعد.

وَوَفَّقَ هذا التنوع البلاغي تصير البلاغة الجديدة علما كليا شاملا يفتح على مختلف التخصصات، واستطاع بفضل هذه الشمولية أن يضم البحوث غير اللسانية، وصارت البلاغة الجديدة أو البلاغات الجديدة، إن شئنا الدقة، مجالاً أرحب لدراسة الخطابات العادية وتأويلها، وعدم الاكتفاء بدراسة الخطاب الجمالي المنمق<sup>(١)</sup>.

وحول منطقة اشتغال البلاغات الجديدة، فإنها تتعامل مع الخطاب تعاملًا وصفيًا، وتعتمد إلى تحديد استراتيجيات الخطابات على اختلاف مشاربيها، كما تبحث في وظائف الصورة، والاهتمام بالخطابات الفلسفية، والقانونية، والسياسية، والأخلاقية، بل بدراسة الأزياء والموضة، التي تدخل في الدراسات السيميائية، وعنى بها رولان بارت، كما عنى بيرلمان، وتيتيكاه، وديكرو، وميشال مايير، بدراسة الحجاج والإقناع، وعنى أوستين وسيرل بنظرية أفعال الكلام التداولية.

(١) للمزيد ينظر : جميل حمداوي: من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب - دمشق، مج ٣٢، ع ١٣٢-١٣٣ ربيع ٢٠١٤، ص ص ٣١-٦٢.



## المطلب الثاني: البلاغة القديمة، وسؤال عن مسببات القَدَم .

في رحلة تفتيش عن السبب وراء بقاء القصيدة العمودية صُلبة صلدة رغم تعاور أشكال جديدة عليها، وجدتُ الإجابة حاضرة عند إيف ستالوني في كتابه الأجناس الأدبية؛ إذ قرر أن القصيدة الكلاسيكية تحمل بداخلها عوامل بقائها صلبة، مما يمكنها من مجابهة أي محاولة لإلغائها<sup>(١)</sup>، أقول: إن هذا الأمر نفسه شبيه بما عليه البلاغة التراثية، فإنها -أيضا- تحمل بداخلها عوامل بقائها، نظرا لإحكام قواعدها العلمية إحكاما يجعل من الصعب إلغائها، وإذا كان صلاح فضل يحدد سبب بقاء البلاغة الغربية حيّة، وذلك في قوله: إن الذي منع أوربا من دفن البلاغة نهائيا هي قوانين التعليم<sup>(٢)</sup>؛ تعليقا منه على قول رولان بارت الذي أورده سابقا - فإننا لا نرى أن البلاغة العربية قابلة للإلغاء؛ إذ إنها علم لا ينفصل عن الخطاب أو النص، فكيف لعلم أن يدفن أو يُمحي وهو مسطر في بطون الخطابات والنصوص التي أنتجته؟!

وإذا أردنا أن نضع أيدينا على العطب الذي جعل البلاغة التراثية تتخلف عن الدور المرسوم لها في دراسة الخطابات كافة، واستكشاف مدلولاتها، فإننا واجدون هذا العطب في إنكار كثير من الدارسين لما تحمله هذه البلاغة من مخزون علمي، مما حدا بهم إلى السعي لإيجاد بديل غربي يحل محلها، وقد تكرر هذا الأمر كثيرا حينما عدّ دارسو الأسلوبية من الباحثين العرب الأسلوبية بديلا عن البلاغة، وحينما تراجعت الأسلوبية وظهر الحجاج عدّوه بديلا عنها أيضا، وهكذا دواليك في كل منهج جديد يخرج<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا الصدد يبين باحثٌ معاصر عن أمر مهم يدحض كثيرا مما أثير حول البلاغة القديمة من أنها بلاغة شكلية تعنى بجانب الإمتاع فقط، وذلك حين يقرر أن تاريخ البلاغة لا بد أن يُنظر إليه بداية من العصر الجاهلي لا من مرحلة التدوين البلاغي؛ لأن الإشارات التي وردت عن الشعر والقصص التي أثرت حوله وحول الخطابة تثبت أن البلاغة العربية في هذا العصر إنما كانت: "ملكة فطرية لصيقة بالتواصل الذي أخذ شكلين: الإمتاع والإقناع"<sup>(٤)</sup> ويرى أن البلاغة العربية قد جمعت في أصل نشأتها بين الجانبين الشعري والخطابي، في حين كانت البلاغة الغربية في أصل نشأتها معتمدة على الجانب الخطابي فقط، ولم يضاف إليها الأصل

(١) إيف ستالوني: الأجناس الأدبية، تر: محمد الزكراوي، مراجعة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٤، ص١٨٨.

(٢) ينظر: د. صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة- الكويت، ١٩٩٢، ص١٨٨.

(٣) وقد سبق وأوردنا مقولة عبد السلام المسدي في جعل الأسلوبية بديلا عن البلاغة، وبالنسبة للحجاج فقد عدّه عبدالله صولة بديلا أيضا عن البلاغة حين قال: " يمكن أن نعتبر البلاغة التي جاء بها بيرلمان وتينيكاه هي هذه البلاغة الجديدة". ينظر: البلاغة العربية في ضوء البلاغة الجديدة أو الحجاج، ضمن الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ٢٠١٠، ط١، ص٢٨.

(٤) بوعافية محمد عبد الرزاق: البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠١٨، ص٣١.

الشعري إلا في عهود متأخرة، يقول: " نجد البلاغة العربية تتأصل في فرعين... شعري وخطابي منذ البداية، والبلاغة الغربية تأخرت دعوات دمج الشعري والخطابي إلى فترات متأخرة من عهود البلاغة، بالإضافة إلى أن البلاغة الغربية نشأت خطابة، والبلاغة العربية نشأت باعتبارها ملكة للتواصل إمتاعاً وإقناعاً وتشارك في الحياة العامة والخاصة " (١) .

وإذا كانت هذه هي بدايات البلاغة العربية في العصر الجاهلي؛ إذ لم تكن المؤلفات والدراسات قد أخذت في الظهور فبدهي أن المرحلة التي تلت العصر الجاهلي كانت زاخرة بدراسات سلكت البلاغة العربية في أنواع من الخطابات، كالخطاب الديني المعزو إليه نشأة البلاغة، والخطاب الفلسفي الذي دار في حلق المتكلمين، والخطاب الفقهي الذي يحمل في طياته كثيراً من المبادئ الرائجة في الدرس الحجاجي والتداولي اليوم، إلى آخر هذه الدوائر التي تغلغت فيها البلاغة، مما يدفعنا إلى القول بأن النظرة القاصرة إلى هذا المنتج البلاغي التراثي من قبل الباحثين المعاصرين أحد أهم الأسباب التي رُميت البلاغة من أجلها بالقدم، الذي يشي بالضعف والنبذ والتخلف.

وليس أدل على كلامنا هذا من تلك اللفتة الرائعة التي سجلها حازم القرطاجني موجهها كلامه إلى أرسطو قائلاً: " ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات، واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظاً ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني، لزداد على ما وضع من القوانين الشعرية" (٢). وهذا يدل على أن البلاغة اليونانية التي تناولها الدارسون بوصفها المؤثر الأكبر في البلاغة العربية، كانت قد تقاصرت عن الوفاء بضروب الإبداع الشعري.

وهذا الأمر المهم المتعلق بقراءة الملاحظات البلاغية في العصر الجاهلي يجرنا إلى ضرورة مُلحة للتفريق فيما بين شقين رئيسيين للتوصل إلى البلاغة، أو لمعرفة البلاغة، الأول معرفة البلاغة من خلال البلغاء ودراسة نصوصهم لاستقراء ما فيها من بلاغة، والشق الثاني: معرفة البلاغة من خلال المدونات البلاغية التي ألفت، وهو الأمر الذي جعل الدكتور مجدي توفيق في كتابه: ما البلاغة؟ يجعل للبلاغة تاريخين لا تاريخاً واحداً، يقول: "هذا ما يجعلنا نحتاج إلى تاريخين: الأول تاريخ البلغاء، والآخر تاريخ البلاغيين. أو لنقل الأول هو تاريخ البلاغة التي أنجزها البلغاء نصوصاً بليغة، والآخر تاريخ الدراسات التي تناولت البلاغة، وأقامت بناءها، وعزفت طبيعتها..." (٣) ، ولا شك أن الأمر بالنسبة للبلاغة العربية قد تكرر في رصد

(١) السابق: ص ٣٢.

(٢) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط ٢، ١٩٨١، ص ٦٩.

(٣) د. مجدي أحمد توفيق: ما البلاغة؟، دار سندباد، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣، ص ٧٥.

تاريخ البلاغة دون تاريخ النصوص البليغة، وكان الأولى العناية بتاريخ نصوص البلاغاء، التي تمكننا من رصد الظاهرة البلاغية<sup>(١)</sup>، وهذه الملاحظة المهمة أحد أهم الأسباب التي جعلت من البلاغة فناً قَبْلِيًّا حاكماً على النصوص، لا مكتشفاً لإبداعها وأدبيتها.

ومن مسببات رمي البلاغة بالقدم المفضي لنبذها، أيضاً، انعدام فقه التعاطي مع الآخر الغربي فيما يخص بلاغته الجديدة في أوساط البلاغيين العرب، فمن فئة تخصصت في نقل كثير من المؤلفات نقلاً حرفياً لا تُستخلص منه فائدة، ولا يوقف عليه بعين التدقيق<sup>(٢)</sup>، وفئة أخرى تقف معرفتها عند حد الانبهار بالثقافة الغربية فقط، إلى الفئة الثالثة التي ما إن تحيط علماً بثقافة الآخر حتى تزري بثقافتنا وتنتقصها وتتادي بهدمها، وقليلون من يكونون جسراً يحاول أن يربط فيما بين الثقافتين.

وإذا أردنا أن نقارن هذا المسلك الحديث بما كان عليه علماء البلاغة العربية قديماً، فسندج أنهم تعاطوا مع البلاغات الأخرى السابقة، من خلال ما قام به التراجمة آنئذ من نقل كثير من بلاغات هذه الأمم للغة العربية، وبالإمكان أن نضرب مثلاً بنص واحد من النصوص التي تبين عن هذا الأمر في البيان والتبيين في قول الجاحظ: "أخبرني أبو الزبير كاتب محمد بن حسان، وحدثني محمد بن أبان - ولا أدري كاتب من كان - قالاً: قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل، وقيل لليوناني: ما البلاغة؟ قال: تصحيح الأقسام، واختيار الكلام، وقيل للرومي: ما البلاغة؟ قال: حسن الاقتضاب عند البداهة، والغزارة يوم الإطالة، وقيل للهندي: ما البلاغة؟ قال: وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة، وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة."<sup>(٣)</sup>، ناهيك عما قدمه الفلاسفة العرب من قراءة للفلسفة والمنطق اليوناني، من خلال طروحاتهم عن منطق أرسطو ونظرية الشعر والخطابة وغيرها، وهو الأمر الذي غدّى البلاغة العربية بالثقافة الوافدة في وقت مبكر، وبلا شك أثرى فيها جوانب عدة لا يمكن إنكارها.

ويضاف لمسببات وسم البلاغة بالقديمة، أيضاً، شيوع عموميات في أوساط المتخصصين اكتسبت طابع التسليم، حتى بدا باب مناقشتها وكأنه قد أُغلق إلى الأبد، ومن أمثلة ذلك عدة قضايا، لا زالت حتى يومنا هذا تتردد دون ترو أو نظر أو حتى محاولة معاودة النظر

(١) السابق: ص ٧٦.

(٢) من النتائج المؤسفة التي توصلت لها رسالة الدكتوراه التي نوقشت بكلية دار العلوم جامعة الفيوم، عام ٢٠١٤م للباحث: أحمد سمير المرسي، وعنوانها: "الأثر الألماني في مناهج نقد الشعر عند العرب - دراسة نقدية مقارنة" أن كثيراً من الكتب التي أسهمت في تعريف النقد العربي بنظرية جمالية التلقي عن طريق الترجمة، إنما شابها تدليس وقع من المترجمين العرب قد وصل إلى حد انقطاع تام فيما بين النص المترجم والنص الأصلي .

(٣) الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل - بيروت، د.ت، ١/٧٧.

وتقليبه فيها، منها: قضية اعتناء البلاغة العربية بمنشئ النص دون المتلقي (المخاطب)، ومنها: اتهام السكاكي بتجميد البلاغة العربية، وكذلك جعل البلاغة العربية ذات طابع جمالي تخيلي فقط، فهي -إن صحّ التعبير- كاتالوج لإنشاء نص فصيح، يستوي في ذلك الشعر والنثر، وغير ذلك من القضايا الكثيرة المستهلكة في هذا الباب.

وعلى الرغم من أن الإجابة على مثل هذه العموميات المضللة بات محققا في مصادر عدة<sup>(١)</sup>، غير أن الترويج لها في الأوساط العلمية المتبنية لخطاب تقويض البلاغة التراثية يجعل أثر تفنيد هذه المصادر لها كأن لم يكن، ولا زالت تتردد حتى يومنا هذا.

ومن المحزن حقا أن ندرك الآن أن: "معظم الدراسات النقدية العربية كانت تسير حتى أواخر التسعينيات في اتجاه يجعل البلاغة علما قديما وشارف على انتهاء صلاحيته، وستعوضه آليات جديدة، لكن الدراسات الغربية كانت تسير في اتجاه معاكس؛ إذ اقتربت من البلاغة واعتبرت الدراسات القائمة على النص والخطاب خاضعة تحت طائلة إمبراطورية البلاغة"<sup>(٢)</sup>

ومن هنا ندرك الفرق، ونضع أيدينا على المسبب الرئيس في تخلف بلاغتنا العربية عن البلاغة الغربية، فالغرب ناقش بلاغته القديمة ونفض عنها التراب بمساءلتها وإخراجها إلى الوصفية لمساءلة الواقع بخطاباته وتخصصاته المتباينة، من خلال الأسس الحجاجية والجمالية، في حين وقف كثير من البلاغيين في العصر الحديث يكيل الاتهامات للبلاغة التراثية؛ محاولا قتلها وإنبات آخر جديد لا يناسب خصوصية ولا يتواصل مع تراث، فجاء الجديد العربي أمشاجا من بلاغة الغرب الجديدة، التي فيها ما لا يناسب خصوصية الخطاب العربي، اللهم إلا محاولات جادة كانت، مما سنحاول أن نلقي الضوء على إحداها باختصار يفي بمسعى هذا البحث، الذي لا ينتوي الخوض في قضايا مكررة، وإنما مقاربة ترتجي الوضوح في الطرح والعرض.

(١) فيما يخص قضية عناية البلاغة بمنشئ النص دون المتلقي نُحيل إلى كتاب الدكتور: فاضل عبود التميمي، بالاشتراك مع المغربية الدكتورة: بشرى عبد المجيد تاكفراس، بعنوان: البلاغة العربية من التخيل إلى القراءة والتلقي، عن دار مجدلاوي للطبع والنشر والتوزيع بعمان - الأردن، ط١، ٢٠١٧. وفيما يخص قضية جمود البلاغة على يد السكاكي بالإمكان العثور على إجابات شافية تدحض هذه التهمة في كتاب: د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، مكتبة لبنان ناشرون - الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط١، ١٩٩٧. وكذلك رسالة دكتوراه للباحثة: وردة البرطيج: تداوليات الخطاب في مفتاح العلوم للسكاكي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، الجزائر، ٢٠١٧. وبحث العباس عبدوش: بلاغة السكاكي قراءة منهجية، مجلة ممارسات لغوية، محكمة تصدر عن مخبر الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري الجزائر، ع١٣/٢٠١٢. أما القضية الأخيرة التي تختص بجعل البلاغة التراثية ذات بعد تخيلي فقط، فسوف نلقي عليها الضوء في حديثنا عن مشروع الدكتور العمري في نهاية البحث.

(٢) بوعافية محمد عبد الرزاق: البلاغة العربية والبلاغات الجديدة، مرجع سابق، ص ٢٠٤

## المطلب الثالث: توصيف مختصر لمشروعات بلاغية معاصرة.

تعد فكرة تبني مشروع علمي من الأفكار التي لا يؤتاها إلا من استنفر هممه، ورهن وقته كله لقضيته العلمية، وفي البلاغة نلّفى عدة مشروعات علمية قديما وحديثا، فلدينا في التراث البلاغي عدة مشروعات أسست للبلاغة العربية، منها: مشروع عبد القاهر الجرجاني، وأهم ما يميزه أنه اتخذ من الإعجاز منطلقا في بناء صرح بلاغي جمع بداخله أسس البلاغة التخيلية والإقناعية، وهناك مشروع السكاكي وهو مشروع عقلي منطقي، وبشبهه على هذا النحو مشروع حازم القرطاجني .

وإذا كانت هذه بعض المشاريع العلمية القديمة، فإن البلاغيين المحدثين لهم مشاريعهم أيضا، التي سنحاول تقديم توصيف مختصر لبعضها؛ بغية الوقوف على جهة التجديد التي ارتضوها، وفي محاولة لاستكناه وجه البلاغة العربية المعاصرة، وذلك للإجابة عن أسئلة البحث التي طرحناها في مقدمته.

## (١) المشروع البلاغي التراثي للدكتور "محمد محمد أبو موسى"

وهو مشروع يعتد فيه الدكتور أبو موسى بالبلاغة التراثية إلى أبعد مدى، ويرفض تعاطيها مع أي منتج غربي، ويقيم تحليلاته كلها على مساءلة البلاغة للنصوص الأدبية، والبعد عن مساءلة غيرها، كما يسائل عددا من كتب البلاغة وعلى رأسها دلائل الإعجاز ليستصفي أسرارها؛ وليكتشف (سمت الكلام الأول) وقد جعل الدكتور أبو موسى مشروعَه قائما على تنظير خصص له مقدمات كتبه، التي تنطلق من نظرة أصولية ترى التراث مليئا بالأسرار التي تحتاج إلى نبش وتقليب لاستجلائها، وهو بعد هذه المقدمات يقدم تحليلاته الدقيقة للنصوص التراثية، وعلى رأسها الشعر إلى جانب دراساته في القرآن والحديث. ومن كتبه: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، قراءة في الأدب القديم، الإعجاز البلاغي -دراسة تحليلية لتراث أهل العلم، مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني، الشعر الجاهلي، دراسة في منازع الشعراء... وغيرها.

ويأتي المقصد من وراء توصيف هذه المشاريع البلاغية المؤثرة في حياة البلاغة المعاصرة كامنا في محاولة لجمع رؤاها، ولذلك فلسنا بصدد إصدار تقييم لها، وإنما هو توصيف مختصر يبين عن حدودها، ومن هنا فالمنهجية العلمية تُحتم علينا أن نصف مشروع الدكتور "أبو موسى" بأنه كان الأجدر على أن يقود دقة البحث البلاغي؛ لينتج لنا خطابا بلاغيا معاصرا يستمد أسسه من التراث؛ وذلك لأن الدكتور (أبو موسى) يُعدُّ من سدنة هذا العلم الشريف المخلصين له، أمضى عمره في تتبع دقائقه، والتفتيش عن أسراره، وألمَّ بأبعاد التراث البلاغي المترامية، غير أنه انكفأ على التراث، ولم يقبل بإجراء أي نوع من المناقفة بين التراث البلاغي

وغيره من البلاغات الغربية أو غير الغربية، وقد رأى أن التجديد لا ينبغي أن يبتعد عن الداخل، يقول: "لم تُعَرَفْ أُمَّةٌ بَنَتْ حَضَارَتَهَا بِعَقُولِ غَيْرِهَا، وَلَا جَدَّدَتْ مَعَارِفَهَا بِمَعَارِفِ غَيْرِهَا"<sup>(١)</sup> والمقولة صحيحة في شقها الأول: البناء، لكن تعوزها الدقة في شق التجديد؛ لأن المعارف يدخل فيها التأثير والتأثر، والتراث العربي نفسه قد تأثر بالإرث المعرفي للأمم السابقة، وقد تأثرت البلاغة بموروث يوناني، وفارسي، وهندي سابق عليها، والأمر الأخطر في مشروع أبي موسى أن قراءة البلاغة من الداخل لا تبني تصورا نافعا عن العلم، ولا تعطي تفسيرات شافية لكثير من قضاياها، وقد بات من المعروف منهجيا أن تفسير أي ظاهرة يحتاج إلى المثاقفة والمساءلة والمقارنة، لا إلى الانكفاء والانزواء.

## (٢) مشروع الدكتور "سعد مصلوح" البلاغي :

لم يكن انصراف الدكتور سعد مصلوح لدراسة الاختصاص اللساني ليُثَبِّتَه عن متابعة درس البلاغي العربي، وإنجاز مشروع بلاغي (موفور الإثاء) يُحسب له فيه أنه جاء مبكرا، كما تميز بنضج علمي، وبصيرة أستاذ عمل على تدويم ما توصل إليه في مسيرته العلمية هذه، وذلك من خلال إشراك تلامذته في هذا المشروع.

وملامح سُهْمَتِهِ في هذا المشروع منبثقة في عدة بحوث وكتب أكاديمية، نذكر منها: كتاب: الخطاب الإعلاني في الصحافة المعاصرة في ضوء اللسانيات النصية (٢٠١٥)، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة (٢٠٠٦)، وكتاب: في النص الأدبي دراسات أسلوبية إحصائية (٢٠٠٢) وكتاب: الأسلوب دراسة لغوية إحصائية (١٩٩١)، وكتابه: حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر (١٩٨٠)، وله من البحوث المهمة التي طرح فيها قضايا تجديدية عملية: نحو أجرومية للنص الشعري: دراسة في قصيدة جاهلية، وبحث: في البلاغة والتكافؤ النحوي بين العربية والإنجليزية والروسية، وغير ذلك من الدراسات.

ومن الممكن أن نبين عن معالم مشروعه من خلال ما كتبه في بحثه: "تجربتي مع البلاغة العربية"، وقد نُشِرَ منذ يومين فقط من كتابتي لهذه الدراسة<sup>(٢)</sup>، وأهم هذه المعالم :

- العمل وفق مصطلح "الصيرورة العلمية"، الذي اخترعه ليكون مناقضا لمصطلح جاستون باشلار Gaston Bachelard: "القطيعة المعرفية"، وقد جعل مصلوح مبدأه قائما على

(١) د. محمد محمد أبو موسى: القوس العذراء وقراءة التراث، مكتبة وهبة، ط١، ١٩٨٣، ص ٥

(٢) ينظر بحثه: " تجربتي مع البلاغة العربية" منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثالث لكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، بجامعة القصيم بالملكة العربية السعودية، وعنوانه: " قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي " في ٤/٣/٢٠١٩، ص ٤٣١-٤٥٦. وكان لي نصيب في حضور هذا المؤتمر، وطرح مداخلة مع الدكتور سعد حول تجربته مع البلاغة، والحصول على إضاءات مهمة أسجلها في هذه الدراسة.

التواصل مع التراث لا الانقطاع عنه، وعارض أولئك الذين يتبنون مصطلح باشلار؛ لكونه ضد طبيعة العلم.

- أعاد النظر في البلاغة المدرسية لجعلها بلاغة مستويات لا بلاغة علوم متوازية منفصلة.

- أرجع البصر كرات في كتاب السكاكي؛ مدافعا عنه ضد من انتقصوا ذائقته، وأهملوا قيمة (مفتاحه)، وكالوا له التهم بالجمود.

- عمل على استدخال البعد الزمني في تصنيف البلاغة؛ لتؤول إلى بلاغتين: زمانية، وآنية، واستند إلى ملاحظة مهمة مفادها: أن البلاغة المدرسية بلاغة (لا تاريخية) باقية فنونها عبر الزمن لم تتغير، مما جعلها مفارقة لحركة الإبداع، ومن ههنا استحدث فكرة عمل وفقها على إدخال التاريخية إلى ساحة البلاغة العربية؛ لتتحول معه إلى الآنية.

- أبرز الدور الذي يؤديه علم البديع، ليكون مكونا إجرائيا مهما في نظرية اللسانيات النصية.

- حول الفن البلاغي المجرد إلى مفهوم الخاصية الأسلوبية، وذلك في ضوء تفريقه فيما بين البلاغة والأسلوبية، وبذلك نفى الجاهزية عن الفن البلاغي، فبدلا من كونه سابقا على النص يحتديه المبدع، صار خاصية تُستقرأ.

- وأخيرا اقترح منظورا تقابليا لفحص التكافؤ النحوي والبلاغي بين السنة البشر، كما كان له جهد في تحليل بلاغة الإعلان من خلال المصطلح البلاغي المدرسي/ القديم، مما قارب به غايات الإقناع في طرحه له، ونفى ما يُداول حول فساد المصطلح البلاغي القديم وجموده.

وتجربة مصلوح، وفق هذا، لها دور كبير في تحولات مهمة تخدم الدرس البلاغي، لعل أهمها إضافة البعد التاريخي للبلاغة لتكون آنية متابعة لحركة الإبداع، غير أنني وعبر مداخلة مباشرة مع الدكتور طرحتُ عليه فكرة تكامل المشاريع البلاغية العربية المختلفة، فأشار إلي: " أن الأفضل للبحث البلاغي أن يُنتج من شاء ما شاء، ونترك الأكاليل في النهاية ليضعها الزمن"<sup>(١)</sup>، ورغم وعيي بعمق رده، وأنه ما أراد إلا أن التجديد الحقيقي الذي يبتغي صاحبه النفع للغة ولبلاغة لغته، سيبقى كما يبقى ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، وأن ما عدا ذلك من الأعمال والمشاريع المستغربة لا تلبث أن تذهب كما يذهب الزيد جفاء-فإنني، مع ذلك، لا أرى بديلا عن توافق الرؤى وتكاملها، وبخاصة تلك الرؤى الكبرى التي طرحتُ بعضها في هذا البحث، وأن

(١) دارت هذه المداخلة بيني وبين الدكتور سعد بعد انتهاء عرضه لورقته العلمية "تجربتي مع البلاغة"، التي ألقاها في المؤتمر السابق توثيقه، في الجلسة الثانية التي حملت عنوان: "قراءات معاصرة للتراث الأدبي والبلاغي" من الساعة (١٠.٣٥ ص) إلى (١٢م) من يوم الخميس الموافق ٢٠١٩/٣/١٤، بقاعة الاحتفالات بكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، بجامعة القصيم، بالسعودية.

بَعَزَقَةَ العلم وشتاته يُضَيِّعُ الفائدة المرجوة منه، وبصيه بآفات التكرار، والتغريب، وانعدام القيمة. ثم إن الغرب ما تطورت بلاغتهم، ورؤاهم النقدية إلا من خلال فكرة التكامل البحثي، من خلال المدارس والحلقات العلمية، كمدرسة جنيف، وبراغ، والمدرسة التوزيعية، ومدرسة فيرث، والمدرسة التوليدية...، وهذا سمت البحث العلمي الحديث، الذي يتجلى في التكامل لا التنافر.

### (٣) مشروع الدكتور محمد عبد المطلب في التوفيق بين البلاغة والأسلوبية:

يقف الدكتور محمد عبد المطلب على رأس مشروع بلاغي كبير، استطاع فيه أن يجدد مناطق حيوية في الدرس البلاغي القديم من خلال ربطه بمنجزات الدرس الأسلوبي الحديث، حتى صار هذا الربط وقفا عليه أو كاد...، وقد أبان عن منهجه في التجديد البلاغي بقوله في كتابه الذي قدّم فيه قراءة أخرى للبلاغة العربية: "الأمر مرهون بإيجاد الصلات والعلاقات ومواطن الشراكة، التي تربط التحليل البلاغي بمستجدات التعامل النقدي الحديث مع النص ونظامه، فالبلاغة العربية -مثلا- تشارك التوجه النقدي الحديث في إطار السيميائيات للعناية بالقرائن، والبحث عن إشارات النص لبيان الدلالة المتعلقة بقصدية الكلام، كما للبلاغة صلة وثيقة بالأسلوبية الحديثة دون أن يحل أحدهما محل الآخر..."<sup>(١)</sup> ووفق هذا المنهج في التجديد امتد مشروع الدكتور عبد المطلب تحت ظلال الأسلوبية؛ محاولا ردها إلى أصل تراثي في البلاغة، وبخاصة نظرية النظم عند عبد القاهر، ثم عمد إلى تقديم عدد من الدراسات التطبيقية، التي استكمل بها مشروعه، مما صنع لمشروعه البلاغي امتدادا منهجيا مميزا، ومن أهم كتبه في الجانبين: البلاغة والأسلوبية، البلاغة العربية قراءة أخرى، قضايا الحداثة عند عبد القاهر، بناء الأسلوب في شعر الحداثة: التكوين البديعي، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، وغيرها. ومشروع الدكتور محمد عبد المطلب، على اكتماله تنظيرا وتطبيقا، غير أنه توقف أو كاد عند الأسلوبية، دون استكمال تحديات البلاغة التراثية مع المناهج التي تلتها كالججاج والتداولية، وتحليل الخطاب.<sup>(٢)</sup>

### - المشروع البلاغي للدكتور محمد العمري: (بلاغة الخطاب)

والمنتبع لسيرة الرجل سيجد باحثا قد اطلع على التراث وسيره، بالإضافة -وهذا الأهم- أنه استوعب مقالات الغربيين في منجزهم البلاغي الجديد، وعمد إلى ترجمته للعربية كذلك، ولم ينزلق فيما انزلق إليه غيره بأن نادى بدفن البلاغة العربية أو قتلها، وإنما أقام حوارا يحكمه منطق

(١) د. محمد عبد المطلب: البلاغة العربية قراءة أخرى، مرجع سابق، ص ٨، ٩.

(٢) في الرسالة العلمية التي أعدت عن جهود الدكتور محمد عبد المطلب البلاغية والنقدية، كان جل الاهتمام على جهوده في الربط بين البلاغة والأسلوبية، للمزيد بنظر: محمد عبد المطلب ناقدًا وبلاغيا، الطالبة آلاء محمد تيسير درويش، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٦م.



العلم، وعاطفة الباحث الساعي وراء ضالته؛ كي يستنهض علما أقل ما يوصف به أنه (إمبراطورية)<sup>(١)</sup>، وهو الوصف الذي جعله عنوانا لموقعه الإلكتروني (إمبراطورية البلاغة).  
ينضاف إلى هذه الأمور أن مشروع محمد العمري لا يلغي أية مشاريع أخرى<sup>(٢)</sup>، ولما كان السؤال مفتاح العلم، فإن مشروع العمري أيضا دائم التساؤلات التي يثير من خلالها حراكا مثمرا حول نقاط التماس فيما بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة، كما يبدو حريصا في وصف مشروعه بأنه (سعي) نحو فتح آفاق المنجز البلاغي العربي؛ ليتمكنه بعد ذلك من وضعها على خريطة البلاغة العالمية، يقول: "المطلوب الآن في الواقع، إذا توضحت المنجزات البلاغية العربية، بقدر كاف، أن نحاول فتح موقع لنا في تاريخ البلاغة العالمية"<sup>(٣)</sup> فيعرفها بأنها: "علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال"<sup>(٤)</sup> ومن هنا فهو يفتح بتعريف البلاغة نحو الخطاب العام أو البلاغة الكلية، ويستنتق البلاغة العربية بما يجعلها خطابا يشتمل على البعدين التخيلي والإقناعي.

وقد حاول في كتبه الأخيرة من مشروعه، وخاصة كتابه: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أن يجعل البلاغة موزعة فيما بين منطقة التخيل الذي يختص به (الشعري) أو الشعرية بمصطلحه هو، والمنطقة التداولية الحجاجية، وهي منطقة (الخطابية)، دون أن يكون هناك فصل حاد فيما بين المنطقتين (الشعرية والخطابية)، بل قد يخرج الشعر من التخيلي ليكون تداوليا حجاجيا، وقد تخرج الخطابة إلى التخيل والشعرية، وبذلك يجعل من البلاغة علما شاملا صالحا لدراسة كافة الأنواع، يقول متحدثا عن المسارين الكبيرين اللذين سيطرا على البلاغة التراثية: "مسار البديع يغذيه الشعر، ومسار البيان تغذيه الخطابة، ونظرا للتداخل الكبير بين الشعر والخطابة في التراث العربي، فقد ظل المساران متداخلين وملتبسين؛ رغم الجهود الكبيرة النيرة التي ساهم بها الفلاسفة، وهم يقرؤون بلاغة أرسطو وشعريته."<sup>(٥)</sup>

ولم تكن عناية مشروع العمري منصبه على التوفيق فيما بين البلاغة العربية والبلاغة الجديدة من خلال كتابه: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، ولا إعادة قراءة التراث البلاغي من خلال مؤلفه المشهور: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها - فحسب، بل كانت له إسهامات واضحة في علم المصطلح، وفي التطبيق، والتحقيق، مما يطول ذكره هنا<sup>(٦)</sup>.

(١) موقعه على الشبكة العنكبوتية: <http://www.medelomari.net>

(٢) ينظر مقدمة كتابه: البلاغة العربية؛ أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٨، المقدمة.

(٣) د محمد العمري: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٣، ص٢٥٥.

(٤) السابق: ص ١٨.

(٥) د. محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ٢٠١٢، ص٢١.

(٦) من أمثلة الكتب التطبيقية: في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، وكتابه: اتجاهات

ويعد هذا التوصيف المقتضب لبعض المشاريع البلاغية المعاصرة يتبقى لنا الإجابة عن السؤال: لماذا تخلفت البلاغة العربية عن الركب؟ والإجابة تتطلب توحيداً لمسعى البلاغيين العرب من أصحاب المشاريع المتباينة الرؤى أو المتفقة في رؤاها؛ كي يعملوا على بلورة جهودهم في صيغة متكاملة للبلاغة العربية، يحافظون فيها على خصوصية تراثنا البلاغي والأدبي، وفي الوقت نفسه يفيدون من المنجز الغربي في ترميم ما تقاصرت البلاغة العربية عن الوفاء به .

---

التوازن الصوتي في الشعر العربي القديم، وكتابه : وتحليل الخطاب الشعري : البنية الصوتية... وغيرها من الدراسات.  
ومن أهم الكتب التي قدمت تحليلاً إضافياً لمشروع العمري البلاغي كتاب : البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، للدكتور بوعافية محمد عبد الرازق ، وقد سبق توثيقه.

## الخاتمة

الالتفاف حول مشروع واحد وإن تباينت رؤاه، أجمع للعلم وأقيم من تغريد كلّ وحده، ومن وراء ذلك جاء هدف البحث في محاولةٍ للملمة جدلية القديم والجديد في البلاغة، ومناقشة سبل تكامل مشروعات البلاغة العربية.

وحول هذه الجدلية أقمنا مادة هذا البحث، التي توزعت فيما بين ثلاثة مطالب سعينا فيها إلى مناقشة أطراف هذه الجدلية حول البلاغة الجديدة من خلال سؤال الماهية، كما سعينا إلى البحث عن مسببات نعت البلاغة العربية بالقديمة نعتا يؤول بها إلى النبذ والانزواء، ثم جاءت النقطة البحثية الأخيرة في البحث لتقدم مجموعة من المشاريع البلاغية المعاصرة؛ لنقف من خلالها على جهود بإمكانها -إن تعاونت- أن تصنع علم البلاغة الكلي، الذي يجمع أصالة القديم جنباً إلى جنب مع حداثة الجديد، من أجل مواكبة التجارب والخطابات التي تتد عن النمطية، فقدمنا توصيفاً لمشروع الدكتور محمد أبي موسى في خدمة البلاغة التراثية، ومشروع الدكتور سعد مصلوح وتجربته البلاغية، ومشروع الدكتور محمد عبد المطلب الأسلوبية، وأخيراً مشروع الدكتور محمد العمري الخطابي.

ومن أهم النتائج التي نستصفيها من وراء هذا البحث، أن هناك عدداً من الأسباب التي كتبت للبلاغة التراثية التخلف، منها إنكار كثير من الدارسين قدرة مخزونها العلمي على تقديم فهم للتساؤلات المعاصرة، و منها أن تاريخ البلاغة العربية المدون تاريخ معياري لقواعد العلم، لا تاريخ الظاهرة البلاغية في نصوص البلغاء، وكذلك انعدام فقه التعاطي مع البلاغة الجديدة، وإضفاء طابع التقديس على التراث البلاغي، وأخيراً شيوع عموميات في أوساط المتخصصين قد اكتسبت طابع التسليم، فصارت لا تقبل المناقشة، من مثل: السكاكي وتجميد البلاغة، البلاغة العربية بلاغة جمالية فقط، البلاغة العربية تعتنى بالمنشئ دون المتلقي، وترديد مثل هذه الأحكام دون بحث يجر على البلاغة النبذ الدائم، والانزواء المقيم.

وختاماً فإن البحث يطمح إلى تحقيق هذه التوصيات:

- تأسيس مشروع بلاغي موحد يعمد إلى الإفادة من الطروحات الكثيرة الموجودة داخل المشاريع البحثية البلاغية الجادة.
- فتح قنوات التواصل فيما بين البلاغة العربية التراثية والبلاغة الجديدة، شريطة المحافظة على الإرث البلاغي فلا يكون الوافد الغربي هادماً له أو بديلاً عنه.
- التوجه بالدرس البلاغي العربيّ نحو الوظيفية لا الجمالية وحدها، في محاولة لجعل البلاغة ذات منحى خطابي شامل.

والله تعالى من وراء القصد،،

## ثبّت المصادر والمراجع

## - أولاً: العربية

١. التميمي، فاضل عبود، و بشرى عبد المجيد تاكفرست، بعنوان: البلاغة العربية من التخيل إلى القراءة والتلقي، دار مجدلاوي للطبع والنشر والتوزيع بعمان - الأردن، ط١، ٢٠١٧.
٢. توفيق، مجدي أحمد: ما البلاغة؟، دار سندباد، القاهرة، ط١، ٢٠١٣.
٣. توفيق، مجدي أحمد: مدخل إلى علم القراءة الأدبية، سلسلة كتابات نقدية (٣٤)، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، د.ط، ١٩٩٤.
٤. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجبل - بيروت، د.ت.
٥. الزيانت، أحمد حسن، دفاع عن البلاغة، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٧.
٦. السكاكي، أبو يعقوب (ت٦٢٦هـ): مفتاح العلوم، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط١، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٧. صولة، عبد الله: الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، ط٢، دار الفارابي - بيروت، ٢٠٠٧.
٨. عبد الرازق، محمد بوعافية: البلاغة العربية والبلاغات الجديدة قراءة في الأنساق بين التراث والمعاصرة، مؤسسة حسين راس الجبل للنشر والتوزيع، الجزائر، ط١، ٢٠١٨.
٩. عبد المطلب، محمد: البلاغة العربية قراءة أخرى، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونغمان، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
١٠. علوي، حافظ إسماعيلي: الحجاج مفهومه ومجالاته؛ دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، إربد - الأردن، ٢٠١٠م.
١١. العمري، محمد: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، أفريقيا الشرق - المغرب، ١٩٩٩م. ٤
١٢. العمري، محمد: أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠١٣.
١٣. العمري، محمد: البلاغة الجديدة بين التخيل والتداول، أفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ٢٠١٢

١٤. فريق البحث في البلاغة والحجاج: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، إشراف: حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، كلية الآداب منوبة - تونس، د.ت.
١٥. فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٢.
١٦. القرطاجني، حازم: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط٢، ١٩٨١.
١٧. المسدي، عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب، دار سعاد الصباح، الكويت، ط٤، ١٩٩٣.
١٨. أبو موسى، محمد محمد: القوس العذراء وقراءة التراث، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٣، ١٩٨٣.
- ثانيا: الكتب المترجمة:**
١. بارت، رولان: قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترجمة عمر أوكان، ط١، إفريقيا الشرق - المغرب، ١٩٩٤م.
٢. جادامر، هانز جورج: الحقيقة والمنهج، الخطوط الأساسية لتأويلية فلسفية، تر: د. حسن ناظم، وعلي حاكم صالح، راجعه عن الألمانية دكتور: جورج كتوره، دار أوبا للطباعة والنشر، طرابلس، ط١، ٢٠٠٧.
٣. ستالوني، إيف: الأجناس الأدبية، تر: محمد الزكراوي، مراجعة حسن حمزة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠١٤.
- ثالثا: الدوريات والرسائل العلمية:**
١. البرطيع، وردة: تداوليات الخطاب في مفتاح العلوم للسكاكي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة القاضي عياض، الجزائر، ٢٠١٧.
٢. تيسير، آلاء محمد: محمد عبد المطلب ناقدا وبلاغيا، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية بغزة، ٢٠١٦م.
٣. حمداوي، جميل، من البلاغة الكلاسيكية إلى البلاغة الجديدة، مجلة التراث العربي، اتحاد الكتاب - دمشق، مج ٣٢، ع ١٣٢-١٣٣، ربيع ٢٠١٤.
٤. المرسي، أحمد سمير: الأثر الألماني في مناهج نقد الشعر عند العرب - دراسة نقدية مقارنة، رسالة دكتوراه مخطوطة بكلية دار العلوم جامعة الفيوم، مصر، ٢٠١٤.

٥.مصلوح، سعد: " تجربتي مع البلاغة العربية" منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي الثالث لكلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية، بجامعة القصيم بالمملكة العربية السعودية، وعنوانه : " قراءات معاصرة لقضايا في التراث اللغوي والأدبي والبلاغي " في ١٤ /٣/٢٠١٩، كتاب المؤتمر، وعنوانه " قراءات معاصرة لقضايا التراث اللغوي والأدبي والبلاغي "

- رابعا: مواقع شبكة الإنترنت

-موقع الدكتور محمد العمري، إمبراطورية البلاغة.<http://www.medelomari.net>.

